القصة العربية في سورية والحداثة

د.عبد النبي اصطيف

-١-

يثير عنوان "القصة العربية في سورية والحداثة"(١) للمتأمل فيه عدداً من الإشكالات والتساؤلات التي أعتقد أن من الحكمة الوقوف عليها حتى تتضح لنا جميعاً آفاق التفكير في جانب مهم جداً من جوانب إنتاجنا المعاصر، وهو القصة القصيرة التي بلغ القصاصون العرب فيها مستويات رفيعة بوأتهم مكانة متميزة في الأدب القصصي العالمي ولاسيما في العصور الثلاثة الأخيرة من قرننا هذا.

***

-٢- أ-

■ * هل إشكال مصطلح القصة مقصود به مصطلح القصة القصيرة أو النثر القصصي.

إشكال المصطلح :

وأول هذه الإشكالات هو إشكال مصطلح القصة "فهل المقصود بهذا المصطلح هو "القصة القصيرة" أو "the short story" كما قد يتبادر للمرء للوهلة الأولى، أم أن المقصود به هو "النثر القصصي" أو "Fiction" الذي يشمل إلى جانب "القصة القصيرة"، "الرواية القصيرة" أو الـ "Novella" و"الرواية" أو "The Novella" أيضاً وربما غيرها من الأجناس الأدبية السردية الثانوية من مثل "الحكاية" "The Tole" و"الخرافة" "The Fable" والقصة الأسطورية "Legend" و"الأسطورة" "Myth" وغيرها.

يحسُّ المرءُ أحياناً أن مصطلح "القصة" في الكتابات العربية الحديثة ولاسيما في سورية لا يزال يجمع بين الدلالة العامة له، والدلالة الخاصة، وربما كان هذا وراء تأكيد دارس جاد ورائد ومهم جداً من دارسي النثر القصصي في سورية- هو الدكتور حسام الخطيب- أنه يعني مصطلح "القصة" كل مايمكن أن ينضوي تحت اسم النثر القصصي من أشكال فنية ولاسيما الرواية والقصة القصيرة"(٢)، وعلى الرغم من أنه يسوّغ التوسع في دلالة المصطلح بنشأة الأدب القصصي الحديثة العهد، ويجمع الكتاب السوريون بين

كتابة القصة القصيرة والرواية وغيرهما، وبطبيعة اهتمامه البحثي- وهو دراسة المؤثرات الأجنبية في القصة السورية الحديثة-، فإنه يرى "أن هناك مبالغة واضحة عند كثير من النقاد في تطبيق مفهومات الأنواع الأدبية" تعافها نفسها فيما يبدو ولذلك فإنه يفضّل مصطلح "القصة" على سواه في دراسته الهوة هذه.

أليس من الغريب حقاً أن نجد النقد العربي الحديث، وعلى الرغم من مضيّ قرن ونيف على ولادة النثر القصصي العربي الحديث، لا يزال ميالاً إلى التساهل في استعمال المصطلحات النقدية المتصلة بالسرد في وقت شهد فيه النقد العالمي ولادة علم خاص به هو "علم السرد"(٣) "Narratology" وتطوّره، وبلوغه مستويات رفيعة، إلى درجة صناعة معاجم خاصة(٤) به تعين دارسيه الذين يزدادون عدداً واهتماماً في شرق العالم وغربه، وفي شماله وجنوبه.

***

٢ - ب -

إشكال الهوية:

وثاني هذه الإشكالات هو إشكال "الهوية" أو "Identity". فهل لفظ "العربية" الذي يتضمنه العنوان يشير إلى لغة هذه القصة، أي أن المرء معني هنا بالقصة القصيرة المكتوبة باللغة العربية، وعندها ربما تساءل عن القصة القصيرة التي يكتبها كتاب يحملون الجنسية العربية السورية ولكنهم يكتبون بالأرمنية، أو الكردية، أو الفرنسية، أو الإنكليزية، وغيرها، وعن طبيعة صلتها بنظيراتها المكتوبة بالعربية، وعن دور اللغة في تحديد هوية النص الأدبي الوطنية، أو القومية، أو الثقافية.

■ * مصطلح القصة في الكتابات العربية الحديثة لا يزال يجمع بين الدلالة العامة له والدلالة الخاصة.

أم أن لفظ "العربية" يشير إلى الهوية القومية لهذه القصة القصيرة، أي أن الباحث معني بجزء من متن القصة القصيرة التي تنتجها الأمة العربية في واحد من أقطارها هو القطر العربي السوري وعندها ربما تساءل عن صلة "القومي" بـ "القطري" في الأدب العربي الحديث، وعن مسوغات الحديث عن "قومي" و"قطري" في ميدان هذا الفن الجميل الذي هو "الأدب" وفيما إذا كان هذا التمييز محفوزاً بعوامل سياسية، أو بعوامل أيديولوجية، أو بعوامل ثقافية، أو بعوامل تاريخية، أو غيرها من العوامل فوق الأدبية "extra-Literary".

لقد أثارت الأحداث السياسية التي عصفت بالمجتمع العربي في ربع القرن الأخير شكوكاً (لا يمكن للمرء أن يتجاهلها) حول مسألة الهوية القومية، وبات المرء يصادف بعض العرب الذين يتساءلون حول مصداقية مفهوم "العروبة"، وفيما إذا كانت الهوية القومية العربية حقيقة فاعلة في حياة العرب المعاصرين، أو أنها مجرد وهم بددته حرب الخليج الثانية التي دفعت ببعضهم إلى الكفر بالرابطة القومية التي تسوغ لنفسها اقتحام قطر عربي آخر، ومحاولة تغيير معالمه كلها. وكذلك لا يستطيع المرء أن يتجاهل الدعوات المنسقة داخلياً وخارجياً للترويج لهويات بديلة من مثل الهوية الشرق -أوسطية (التي تشمل بالطبع الكيان الصهيوني العنصري المزروع في قلب الوطن العربي)، والهوية المتوسطية (التي تتحدث عن قواسم حضارية مشتركة تجمع مابين أمم شواطئ المتوسط الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية) فضلاً عن

الهويات الإقليمة (الخليجية، والمشرقية، والمغربيـة) والقطريـة (التـي تتلمّس جذورهـا فـي التـاريخ البعيد والقريب، والجغرافية، والثقافة، والتراث الشعبي وغيرها)، والتنموية (التـي تتحدث عن دول شمال ودول جنوب، ودول عالم متقدم ودول عالم آخر متخلف، أو نام، أو في طريـق النمـو، أو غـير ذلـك مـن المصطلحات الاقتصادية السياسية) والإثنية والعرقية والثقافية وغيرها مما غدا اليوم -فيما يبدو- مستساغاً على الأسماع العربيـة التـي تحدد رهافتها سبل الاتصال الحديثة ولاسيما القنوات الفضائيـة "العربيـة" و"الإقليمية" والتي تبث إرسالها من الوطن العربي وخارجه -بالعربية وبغيرها من اللغات.

لقد غدا مفهوم "الهوية القومية" موضـع تساؤل جاد، وليس من الحكمة تجاهل مايثار حوله من تساؤلات مهما كانت دوافعها وأسبابها وخلفياتها السياسية والأيديولوجيـة، ذلك أن مواجهتها ضرورة، بل حيوية، لتحويل هذا المفهوم من مجرد طاقة كامنة تستنهض أحياناً وتحبط في أحايين كثيرة إلى طاقة فعّالة محدّدة لمستقبل العرب بوصفهم أمة عربية واحدة أسهمت من قبل وعلى نحو فعّال في الحضارة الإنسانية وقادرة على معاودة دورها الحضاري.

***

٢ - جـ

إشكال الحداثة:

■ * بالرغم من مضي قرن ونيف على ولادة النثر القصصي العربي الحديث، لا يزال ميالاً إلى التساهل في استعمال المصطلحات النقدية.

وثالث هذه الإشكالات يتصل بمصطلح "الحداثة" التي يفترض بالباحث أن يدرس صلة القصة القصيرة العربية في سورية بها. فهل مصطلح "الحداثة" المستعمل في عنوان الندوة ترجمة للمصطلح الإنكليزي "modernity" كما يمكن أن يبدو للوهلة الأولى، أم أنه ترجمة لمصطلح الـ "modernism" أو "نزعة الحداثة"؟ ولكل دلالته وتضمناته العامة والخاصة في الثقافة الأوروبية.

وفضلاً عمّا تثيره مسألة أصول المصطلح العربي ومصادره الغربية، ثمة حقيقة لا يمكن تجاهلها عند تحديد دلالته في الثقافة العربية الحديثة وهي أن مصطلح "الحداثة" مصطلح انبثق في ثقافة "الآخر" "The other" وهو الغرب الأمريكي تحديداً، تعبيراً عن جملة تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وتقنية، وليس من الحكمة تجاوز معرفة طبيعة هذه التحولات قبل تحديد دلالة المصطلح وتضمناته. وذلك أن الربط بين إنتاج أدبي عربي يُفترض فيه أن يكون مجلىً للهوية (القومية) وأنموذج ينتمي إلى ثقافة "الآخر" ينطوي على مقدار من الآليّة التي ينبغي للمرء أن ينأى بنفسه عنها، إذا ما شاء أن يصدر في أحكامه عن الثقافة الخاصة به وعن طبيعتها الخاصة بها.

فالخطر كبير في أن نربط على نحو مفتعل وقسري بين نتاجنا العربي القصصي في قطر عربي ما، وبين مصطلح غريب عنه انبثق، كما سبق، ضمن شروط نوعية خاصة بالمجتمعات الأوروبية، لأنه يعني فيما يعنيه أن المعيار المهيمن في تقويمنا لهذا النتاج سيكون مقدار نجاحه في مسعاه للحاق بركب "الحداثة" التي تنتمي إلى "الآخر"، وعندها سيكون عناقنا للآخر والذوبان فيه من جانب وتخلّينا عن هويتنا المميزة من جانب آخر هما ما يحدد درجة إرتقائنا في سلّم الحداثة.

وبعبارة أخرى إن العرب المحدثين الباحثين عن هوية جديدة لهم تؤمن لهم فسحة لائقة في العصر الحديث (الذي يواجهون فيه تحديات مصيرية على مختلف الأصعدة والمستويات) ينزلقون دون أن يشعروا في فخ التخلي عن هذه الهوية، وتبني أنموذج آخر والانمحاء فيه. وتلك لعمري مفارقة مابعدها مفارقة، وحديث يروى للعبرة، لمن "كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد".

ثم إن مصطلح "الحداثة" نفسه، حتى في ثقافة "الآخر" مصطلح بات متجاوَزاً وعفا عليه الزمن "outdated" ولاسيما في العقود الثلاثة الأخيرة التي شهدت ما اتفق على تسميته بـ "مابعد الحداثة" أو "Post-modernism" هذا المصطلح الذي سكّه إيهاب حسن(٥) الناقد العربي/ الأمريكي المعروف. ألا يثير هذا الأمر تساؤلاً مهماً في غاية الأهمية مايراه البعض في أن قَدَرنا الثقافي أن نلهث وراء صرعات "الآخر" وأن نبقى متخلفين عنها في آن معاً، مفضّلين -فيما يبدو- أن نبقي بيننا وبينها مسافة أمان تمتد عقداً أو عقدين أو ثلاثة عقود أحياناً.

وأخيراً وليس آخراً هناك بعد كل ماتقدّم حقيقة نكاد ننساها وهو أن هذا "الآخر" قد استلهم أنموذجه الأدبي في مطالع عصر النهضة، ولاسيما في مجال النثر القصصي من العرب أنفسهم، في تاريخهم القديم والوسيط(٦). لقد استوحاه من كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، والمقامات العربية وغيرها، فهو بمعنى ما بضاعتنا التي رُدّت إلينا. ولكن إن هي إلا عقدة "الخواجا" وصدق من قال: "إن زامر الحي لايطرب".

■ * إن لفظ العربية يشير إلى الهوية القومية للقصة، أي أن الباحث معني بجزء من متن القصة.

***

٣-

ولكن ما السبيل إلى مواجهة هذه الإشكالات الثلاثة؟

وكيف للمرء أن يتجاوز التفكير فيها إلى عمل منتج يقدّم إسهاماً إيجابياً إلى فهمنا للقصة القصيرة السورية بوصفها جزءاً من القصة القصيرة العربية؟

يميزّ منظّرو الأدب بين ما يسمونه بالشعرية "poetics" أو نظرية الأدب الداخلية، وبين التفسير "interpretation"، أو مواجهة النصوص الأدبية وتدبرّها شرحاً وتحليلاً وتفسيراً وموازنة ومقارنة وحكماً؛ ويشيرون إلى ما حققته نظريات السرد قديماً وحديثاً من تطورات هائلة، ويؤكدون أن العالم مدين في تطويرها لعاملين مهمين جدا:

- *أولهما: الإنتاج القصصي العالمي نفسه، وماقام به منتجو السرد في العالم كله قديماً وحديثاً من مغامرات استكشفوا من خلالها الآفاق التي رادها الخيال البشري، وكان له منها روائع تمثّل الذاكرة القصصية الجمعيّة للإنسانية.*
- *وثانيهما: عمليات التفسير الواسعة التي قام بها نقاد النثر القصصي في مختلف العصور والآداب القومية قديمها وحديثها، أو ضروب النقد التطبيقي الذي تدبّر به هؤلاء النقاد الإنتاج القصصي العالمي نفسه.*

ذلك أن نظريات السرد في تاريخ النقد العالمي إنما قامت على قاعدة واسعة وغنية من عمليات التفسير هذه، والتي تراكمت عبر العصور والثقافات والآداب والحدود اللغوية والسياسية المختلفة، وكانت بمنزلة البنية الفوقية "Superstructure" التي فرزتها عمليات التفسير تلك.

ومعنى هذا أننا إذا ما رغبنا في خدمة قضية السرد العربي، إذا ما شئنا أن نقيم نظرية سرد عربية آنية Synchronic (مقابل نظرية سرد تطورية diachronic تمسح تطور السرد العربي عبر العصور القديمة والوسيطة والحديثة)، فإن علينا أن نعود إلى النصوص القصصية العربية ونتدبّرها بعمليات تفسير فعّالة تستند إلى المعرفة والعلم وليس إلى المزاج والذوق والفردي والتجربة الشخصية وحدها، وأن نمضي من عمليات التفسير – التي ينبغي أن نغرق إلى آذاننا فيها، ونستغرق من خلالها النصوص الخاصة بقاص عربي ما، أو مجموعة من القصاص العرب في قطر عربي ما، في فترة زمنية محددة، إلى إنشاء شعرية خاصة بهذا القاص، أو مجموعة القصاص، أو القصة القصيرة في قطر عربي ما، أو القصة القصيرة العربية الحديثة (فالأمر مرهون في نهاية المطاف باتساع –أوضيق– دائرة عملية التفسير التي نقوم بها). ولا ننسى أن القصة القصيرة جنس سردي صعب لا ينقاد بسهولة لمنتجيه، وأنّه فن لغوي مراوغ لا ينصاع إلا بالمعرفة والمراس لنقاده، وأنّه بعد أن ارتقى على يد منتجين متمرسين مهرة فيه إلى سماوات الأدب العالمي، بحاجة إلى روح ناقد قادرة على مجاراة روح الإبداع تلك وتهويمها في سماوات الخلود.

■ * لقد أثارت الأحداث السياسية التي عصفت بالمجتمع العربي شكوكاً لا يمكن للمرء أن يتجاهلها.

□

□ حواشي

(١) عنوان الندوة السنوية لجمعية القصة والرواية في اتحاد الكتاب العرب بدمشق والتي انعقدت في مقر اتحادالكتاب العرب في أمسيات أيام ١-٣ من كانون الأول من عام ١٩٩٨، وشارك فيها مجموعة من الباحثين والنقاد والكتاب من القطر العربي السوري وأقطار عربية أخرى.

(٢) انظر، د.حسام الخطيب، سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية.

دراسة تطبيقية في الأدب المقارن، ط٥، (مطابع الإدارة السياسية، دمشق،١٩٩٢)، ص(٧).

(٣) انظر على سبيل المثال:

Mieke Ball,

Narratology : Introduction to the theory of Narrative, translated by Christine van Boheemen (University of Toronto Press, Toronto, 1985).

وكذلك– جيرار جنيت، خطاب الحكاية : بحث في المنهج:

ترجمة محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلي، الطبعة الثانية، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧)؛ – دالاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، ترجمة: حياة جاسم محمد، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨).

(٤) انظر على سبيل المثال:

Gerald Prince

Dictonary of Narratology (Univerisity of Nebraska Press, Lincoln and London, 1987).

(٥) لمزيد من التفاصيل عن هذا المفهوم انظر خاتمة كتابه التي ألحقها بطبعة عام ١٩٨٢ والتي تحمل عنوان: "Postface 1982. Towards a Concept of Postmodernism"

في كتابه:

The Dismemberment of Orpheus: Towards a Post modern Literature, Second Edition (The University of Wisconsin Press, Wisconsin, 1982) , PP 259-571.

(٦) لمزيدمن التفاصيل عن الدين الأوروبي للأدب العربي الوسيط انظر كتاب:

Maria Rosa Menocal, The Arabix Role in Medieval Literary History: A Forgotten Heritage (University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 1987).

وقد أنجز ترجمته -فيما أعلم- أحد أساتذة قسم اللغة العربية في جامعة الملك سعود، ولعله يتيسر قريباً للقارئ العربي.

أمّا دين الأدب العالمي و لاسيما في ميدان السرد للأدب الشرق-أوسطي القديم فقد نوقش في كتاب:

Margaret Anne Doddy ,
The True Story of The Novel (Harper Collins Publishers, London, 1997) PP.17-18

ومن قبله في كتاب أن ل رانيلا.

"الماضي المشترك بين العرب والغرب: أصول الآداب الشعبيةالغربية" ترجمة: د. نبيلة إبراهيم، ومراجعة:د. فاطمة موسى.

كتاب عالم المعرفة، العدد ٢٤١، يناير/كانون الثاني، ١٩٩٩.

□□□

صـــدر

عن منشورات اتحاد الكتاب العرب

تطور الوحدة السورية اللبنانية

دراسة.....د.عبد الرحمن بيطار

الموقف الأدبي

العدد 335

آذار - ١٩٩٩ م السنة الثامنة والعشرون،

مجلة ادبية شهرية يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق